أوضاع النصارى في مصر زمن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري وعلاقته بالراهب بولص الحبيس

د. سند أحمد عبد الفتاح

جامعة عين شمس- جمهورية مصر العربية

مقدمة:

تزخر كتب التراجم بالعديد من الشخصيات التي أثارت جدلًا كبيرًا في فترات التاريخ الإسلامي عامة، والعصر المملوكي خاصة، وغالبًا ما تطفو الإشكاليات ويكتنفها الغموض حينما تتعلق هذه التراجم بإحدى شخصيات اليهود أو النصارى؛ حيث تقع معظم المصادر في إشكالية الموضوعية في التعامل معها، وحسبنا في ذلك دراسة وضعية النصارى في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس(٦٥٩-٦٧٦هـ/١٢٦١-١٢٧٧م) من خلال تناول شخصية الراهب بولص الحبيس أنموذجًا؛ حيث سلكت المصادر المملوكية خطًّا واحدًا يتماشى مع أهواء سلاطين المماليك دونما إنصاف للطرف الآخر، بالرغم من أن ذات المصادر تحمل في طيات نصوصها ما ينصف الآخر.

بطبيعة الحال تُعد الإشارات الواردة عن أوضاع النصارى في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس شحيحة جدًا؛ كما أنها مليئة بالغموض والإشكاليات، فضلًا عن أنها كانت مُزرية إلى حد كبير، والباحث حينما يتحدث هنا عن النصارى فإنه لا يعني الصليبيين على الصعيد الرسمي الذين كانت لهم مدن وقلاع حصينة وحكام قائمون عليها في بلاد الشام؛ والتي سعى الظاهر بيبرس إلى إسقاطها الواحدة تلو الأخرى، بل المُعنى بهم في هذا البحث هم عامة النصارى والقسيسين والرهبان، وأوضاعم في ظل حكم بيبرس؛ مع مراعاة تسليط البحث الضوء بصفة خاصة على شخصية محورية لأحد الرهبان النصارى، وهو الراهب بولص الحبيس الذي لعب دوراً حيوياً إبان فترة الاضطرابات بين أهل الذمة والظاهر بيبرس.

باديء ذي بدء تعرض النصارى في عهد بيبرس للتنكيل والتربص من خلال الروايات التي أوردتها المصادر المملوكية، ورغم عدم ثبوت الاتهامات التي طالتهم فإن العقاب فاق حجم ما

نصت عليه العهدة العمرية[1] المعروفة سلفاً في المصادر الإسلامية، بل وصل الأمر إلى محاولة إعادة قصة أصحاب الأخدود[2] مرة ثانية بحفر حفرة كبيرة لهم، وحرقهم فيها أحياء، زد على ذلك بعض الحوادث الأخرى التي وقعت بمباركة الظاهر بيبرس دون أن يتحرك للحد منها من قبيل: ذبح بعض القسيسين، وهدم بعض الكنائس وتحويلها إلى زوايا أو مساجد، إلى غير ذلك من الحوادث التي كان من شأنها تعكير صفو العلاقة المجتمعية بين المسلمين وأهل الذمة.

وسيقوم الباحث في هذا البحث–قدر الإمكان– بمحاولة تقصي أوضاع النصارى والأسباب التي أدت إلى التنكيل بهم وباليهود على حد سواء في عصر بيبرس، من خلال مقدمة وأربعة مباحث، وخاتمة، وثبت بأهم المصادر والمراجع؛ ويتناول الباحث في المقدمة أهمية الموضوع وحظه من الدراسات السابقة، والمنهج الذي اتبعه، وعَرْضًا لأهم المصادر والمراجع التي رجع إليها لاستجلاء غوامض بحثه، أما المبحث الأول فيتحدث فيه عن حريق الباطلية عام٦٦٣هـ/١٢٦٥م الذي يمثل الشرارة التي فتحت باب المضايقات تجاه أهل الذمة عامة، والنصارى خاصة، بينما يتعرض المبحث الثاني إلى العهدة العمرية –التي تنظم طبيعة العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة– أقسامها وشروطها، ولماذا لم يقم الظاهر بيبرس بتطبيقها عقب حريق الباطلية؟ وهل كانت هذه العهدة تتضمن عقوبة حرق أهل الذمة أحياء في حال مخالفتهم للعهد مع المسلمين؟ أما المبحث الثالث فيختص بالحديث عن شخصية الراهب بولص الحبيس من حيث نشأته، وبداية ظهوره على مسرح الأحداث في عصر بيبرس، وطبيعة العلاقة بينهما، والأسباب التي أدت إلى نقمة بيبرس عليه، وفي الختام المبحث الرابع الذي يكشف عن نتائج حريق الباطلية على أوضاع النصارى في دولة بيبرس، ثم خاتمة البحث التي أجمل فيها أهم النتائج التي توصل إليها.

---

[1] انظر: قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ط١، دار عين، القاهرة، ١٩٨٨، ص٢٧٦–٢٧٧. وسيأتي الحديث عنها لاحقاً بين ثنايا البحث.

[2] انظر تفاسير هذه القصة في: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت ٢٠٠٠، ص٣٣٧–٣٣٨؛ الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج٥، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٨، ٣٠٧–٣٠٨؛ الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج١٠، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، بيروت٢٠٠٢، ص١٦٨–١٦٩.

والجدير بالذكر في تناول الباحث لأوضاع النصارى في عهد بيبرس أنه يتعرض لشذرات دقيقة من النصوص المصدرية وجب عليه تحليلها وتفكيكها وفق منهجية قائمة على استنطاق تلك النصوص، وتفصيلها بكل دقة في ظل ندرتها من ناحية، وتهميشها ذكر النصارى قاطبة من ناحية أخرى.

أما عن أهم المصادر التي رجع إليها الباحث لاستجلاء غوامض دراسته؛ فيأتي على رأسها كتاب الصقاعي" **تالي كتاب وفيات الأعيان**" الذي أمدنا ببعض المعلومات عن حياة بولص الراهب الأولي، ثم كتاب اليونيني" **ذيل مرآة الزمان**" الذي تناول حريق الباطلية عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م والذي كان سبباً في التنكيل بالنصارى، كما عرض الكتاب علاقة الظاهر بيبرس بالراهب الحبيس، وحذا حذوه الصفدي في كتابه" **الوافي بالوفيات**"، والكتبي في كتابه" **فوات الوفيات**"، وابن تغري بردي في كتابه" **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**"، والذهبي في كتابه" **تاريخ الإسلام**" .

والمثير للدهشة أن المصادر التي عاصرت فترة حكم الظاهر بيبرس، ودونت سيرته الذاتية لم تذكر من قريب أو بعيد أية إشارة أو ذكر لا إلى حريق الباطلية أو الراهب الحبيس، ككتاب "**تاريخ الملك الظاهر**" لعز الدين بن شداد ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م، وكتاب" **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**" لابن عبد الظاهر ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م، وكتاب" **حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الذاتية**" لشافع بن علي ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م، والمرجح أنها لم تورد ذكر الأحداث التي تتعلق بأهل الذمة إرضاء لولي نعمتهم بيبرس، خاصة مع ازدياد شعبية الراهب بولص بين عامة الشعب، أو أن بعض الأجزاء من مؤلفاتهم قد تعرضت للضياع والفقدان ولم يعثر عليها لنتبين محتواها.

واللافت للنظر أيضاً أنه في حين ربطت جُلّ المصادر المملوكية حريق الباطلية بظهور الراهب الحبيس وفدائه لأهل الذمة من عقوبة الحرق، نجد المؤرخ المقريزي–الذي يعد عمدة مؤرخي مصر الإسلامية–خالف جل هذه المصادر؛ فتعرض لحريق الباطلية دون ذكر أية إشارة إلى الراهب بولص لا من قريب أو بعيد في كتبه" **الخطط المقريزية**" و"**السلوك لمعرفة دول الملوك**" و"**المقفي الكبير**"، وحذا حذوه ابن دقماق في كتابه" **الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين**"، وهو ما يشي بتعمد تهميش دور هذا الراهب آنذاك.

حقيقة لم ينم إلى علم الباحث أية دراسات تناولت وضعية النصارى في عهد الظاهر بيبرس، وتحديداً شخصية الراهب بولص الحبيس، عدا بعض الدراسات المتخصصة التي تناولت اليهود نقداً وتمحيصاً؛ كدراسة أ.د. محاسن الوقاد عن "**اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنيزة**"، وبعض الدراسات التي تناولت فتوحات الظاهر بيبرس ضد الصليبيين، والتي لا تمتّ إلى صلب هذا البحث بأية صلة، وهو ما جعل الباحث يعكف على دراسة وضعية النصارى وهذا الراهب تفصيلًا في عهد بيبرس.

المبحث الأول: -**حريق الباطلية عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م**:

بالرغم من حالة الوفاق والتعايش السلمي الذي كانت عليه طوائف المجتمع المصري في العصر المملوكي–مسلمين ويهود ونصارى–فإن هذه الروح لم تكن هي السائدة دوماً في طبيعة العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة؛ فأحياناً ما كانت تقع بعض المشاحنات بين الفريقين؛ ينتج عنها صور متعددة كإشعال الحرائق، وهدم بعض الكنائس والمساجد، وتدمير بعض البيوت، والتنكيل ببعض الأشخاص...إلخ[٣] .

علي أية حال بدأ تصاعد الأحداث مع أهل الذمة في عهد بيبرس في جمادى الأولى عام٦٦٣هـ/ مارس١٢٦٥م حين وقع حريق في حي الباطلية[٤]، ويبدو أن الظواهر الطبيعية

---

[٣] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ص٤٩٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، ج٤، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، حيدر أباد، الهند ١٩٧٢، ص١٦٥؛ قاسم عبده قاسم، عصر السلاطين المماليك، ط١، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٤، ص١٠١.

[٤] نسبة إلى طائفة الباطلية، وعرفوا بذلك لأن المعز لدين الله الفاطمي كان يقوم بتوزيع العطاء بين الناس، فجاءته طائفة تريد العطاء، فقيل لها فرغ ما كان حاضراً ولم يبق شيء، فقالوا:" **رحنا نحن في الباطل**" فسموا الباطلية، وعرفت الحارة بهم، ويأتي ابن الدواداري على رأس المؤرخين الذين نشأوا وترعرعوا بهذا الحي. انظر: ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٩٦، ص٤٢؛ ابن الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٦ الموسوم بـ"الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦١، ص١٠، ١٤٠–١٤١؛ ج٩، ص١٣٢؛ القلقشندي، صبح الأعشي في صناعة الإنشا، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت (ب.ت)، ص٤٠٢–٤٠٣؛ المقريزي، الخطط المقريزية، ج٣، دار الكتب العلمية بيروت١٤١٨هـ، ص١٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٤، دار الكتب المصرية، القاهرة (ب.ت)، ص٤٦. علماً بأن ابن دقماق ذكرها باسم" **الباطنية**"، انظر: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ق٢ج٥، مطبعة بولاق، القاهرة ١٨٩٣، ص٣٧.

كالرياح الشديدة لعبت دورًا في زيادة رقعة الحريق الجغرافية، حيث أدت إلى تدمير حوالي ثلاث وستين دارًا بالباطلية، ثم انتشر ذلك الحريق الكبير في ربوع أحياء القاهرة فدمر العديد من الأرْبَاع[٥] مثل: رَبْع فرج[٦]، ورَبْع العادل. واحتراق تلك الأحياء كان وبالاً على نظام الوقف المملوكي؛ فالأول كان وقفاً على أشراف المدينة المنورة، في حين كان الثاني وقفاً على تربة الإمام الشافعي، وهو ما يعني توقف استمرارية تلك الأوقاف وتعطلها تجاه تلك الجهات[٧]، ويكفي أن تربة الإمام الشافعي لم يتم عمارتها بعد هذا الحريق؛ لأنها كانت تحتاج إلى أموال طائلة لعمارتها من جديد[٨].

وظلت النار مشتعلة في أحياء القاهرة لدرجة أن كلمة" النار" شكلت هاجساً لوالي القاهرة آنذاك؛ وخير شاهد على ذلك ما روته المصادر–على سبيل الطرفة–من أن صبيًّا لسعته عقرب، ومن شدة الألم صاح: **النار النار!!**، وانتشرت كلمته بين العامة حتى وصلت إلى الوالي فقام من

---

[٥] رَبْعْ: مجموعة من وحدات سكنية في المشهور أنها تعلو خان أو وكالة أو دكاكين خاصة في المدن التجارية، وتطلق على مساكن لها مداخل وسلالم خاصة، ويشتمل المبنى الواحد على أكثر من ربع. للمزيد انظر: محمد محمد أمين، ليلى علي إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، الجامعة الأمريكية القاهرة ١٩٩٠، ص٥٢–٥٣؛ عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١١٧؛ عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، ط١، دار جروس برس، بيروت، ١٩٨٨، ص١٩٧.

[٦] انظر عنه: ابن دقماق، الانتصار، ج١، ص٨، ٢٨، ٣٦.

[٧] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ١٩٩٢، ص٣٢٠؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٠، تحقيق: نجيب مصطفي فواز، حكمت فواز، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٤، ص٧٣؛ مفضل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق: بلوشيه، ضمن دورية Patrologia Orientalis، الجزء ١٢، بلجيكا ١٩٨٢، ص١٣٤؛ الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، ج١، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت١٩٧٣، ص٢٣٤؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مج١٥، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت٢٠٠٣، ص١٢؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفي، دار إحياء التراث، بيروت ٢٠٠٠، ص٢٠٣؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٣، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٨٥، ص٤٤٤. بالإضافة إلى حريق بيبرس حدث هناك حريق ضخم في عام٧٢١هـ/١٣٢١م في عهد الناصر محمد بن قلاوون وهو ما سبب مضايقات طائفية بين الطرفين؛ نجم عنها حريق متبادل للكنائس والمساجد والمباني والممتلكات. انظر: ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، بيروت ١٩٧٠، ص٣٨٧–٣٨٨؛ اليافعي مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ج٤، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧، ص١٩٦.

[٨] مفضل، النهج السديد، ج١٢، ص١٣٤.

فوره إلى ذلك الحي الذي به الصبي ظناً منه بوجود حريق آخر به، فلما علم بأمر العقرب جلد الصبي بالسياط لكونه تفوه بكلمة النار[٩]؛ وهو ما يشي بالأثر النفسي الذي تركه هذا الحريق في القائمين على الدولة، وعامة الشعب .

وقد لجأ العامة إلى بعض الوسائل الوقائية التقليدية للحد من انتشار رقعة الحرائق والسيطرة عليها؛ فقاموا بوضع دنان[١٠] المياه في الشوارع والأزقة حفاظاً على أنفسهم وممتلكاتهم[١١]، حتى تم احتوائها، غير أنها تركت أثراً ظل عالقاً في نفوس الأجيال التالية حتى صار مضرباً للمثل[١٢]؛ فيقال للشخص الذي يشرب الماء كثيراً: "**كأن في باطنه حريق الباطلية**"[١٣]، فضلاً عن هذا كان هذا الحريق سببًا في زوال الكثير من معالم هذا الحي وآثاره العمرانية التي كانت شاهدة على التقدم الحضاري في مصر آنذاك، ناهيك عن تضرر القطاع الاقتصادي والخسائر المادية الناجمة عنها، فكل منشأة محروقة كانت تمثل خسارة اقتصادية وضياعًا للجهد والمال، وخير شاهد على ذلك أن حي الباطلية ظل خرابًا يبابًا ما يزيد عن قرن من الزمان حتى قام الطواشي بهادر المقدم بعمارة داره في ذلك الحي عام٧٨٥هـ/١٣٨٣م، فكان ذلك بداية حركة عمرانية شاملة في عهد السلطان الجركسي الظاهر برقوق[١٤].

وكان للأضرار الجسيمة التي لحقت بحي الباطلية جراء الحريق أثر كبير في وضعية أهل الذمة في مصر؛ فالظاهر بيبرس قفل عائداً من بلاد الشام عقب سلسلة من الفتوحات للقلاع والمدن الصليبية هناك، غير أنه فوجئ بهذا الحريق الذي أتى على الأخضر واليابس في هذا الحي، وكان في مخياله عمارة هذا الحي لو كان حريقاً من فعل الأخطاء البشرية أو بسبب الصواعق الطبيعية، إلا أنه تناهى إلى مسامعه شبهة تعمد بعض الأشخاص استخدام لفائف محشوة بالكبريت والنار وإلقائها فوق أسطح الدور، وهو ما زاد من الرقعة الجغرافية للدور

---

[٩] مفضل، النهج السديد، ج١٢، ص١٣٥.

[١٠] دنان جمع والمفرد دن، وهو برميل أو وعاء ضخم للخل والخمر وما شابههما. أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج١، عالم الكتب، بيروت ٢٠٠٨، ص٧٧٤.

[١١] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٢١.

[١٢] المرادي الحسيني، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ج٣، دار ابن حزم، القاهرة ١٩٨٨، ص١٨٢.

[١٣] المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٦.

[١٤] المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٦

المحترقة[١٥]، لذا استشاط غضباً، وأمر بمعرفة من قام بإشعال الحريق في هذا الحي؟ وسرت الأخبار كالنار في الهشيم بضلوع أهل الذمة في تدبير حريق الباطلية، وسرعان ما أعلن بيبرس صراحة ضلوع النصارى في تدبير هذا الحريق قائلاً:"**هذا الحريق من النصارى**"[١٦].

والثابت أن مؤرخي المصادر المملوكية لم يؤكدوا أو يجزموا بضلوع أهل الذمة في ذلك الحريق، إلا إنهم اختصوا النصارى دون اليهود بهذا الفعل؛ فجاءت عباراتهم تحمل معنى الشك والظن والاتهام؛ من قبيل:" **وشاع الخبر أن النصارى يفعلون ذلك**"[١٧]، و" **اتهم بذلك النصارى**"[١٨]، ثم طالت الاتهامات طوائف محددة من النصارى؛ كالنصارى الكركيين والملكيين[١٩]، وبالرغم من عدم وجود دليل مثبت لدى الظاهر بيبرس يدين أهل الذمة في إضرام هذا الحريق فإنه أمر على الفور باعتقال اليهود والنصارى على حد سواء، وحرقهم واستئصالهم"**فمسكوا عن بكرة أبيهم، وأوقدت لهم النار بالأحطاب في حظيرة كانت بالقلعة التي بناها دارًا للملك السعيد بركة خان**[٢٠].

وإذا افترضنا صحة الرأي القائل بضلوع النصارى في حريق الباطلية، وما ترتب عليه من نتائج وخيمة على أهل الذمة، فإن هذا الرأي ينقلنا إلى الصراع الإسلامي الصليبي بصفة عامة،

---

[١٥] مفضل، النهج السديد، ج١٢، ص١٣٤؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٥.

[١٦] ابن دقماق، الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق: سعيد عاشور، مراجعة: أحمد دراج، القاهرة ١٩٨٢، ص٢٧٦.

[١٧] النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٧٣؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٥.

[١٨] الذهبي، تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١٢؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٤؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٠٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، تحقيق: علي شيري، ط احياء التراث، بيروت ١٩٨٨، ص٢٨٤؛ المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٥؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٤٤؛ العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج١، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق، القاهرة٢٠١٠، ص٤١٠.

[١٩] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٢١. يروي القلقشندي أن النصارى الملكيين هم أتباع ملكان الذي ظهر ببلاد الرّوم؛ وبمقتضى ذلك نُسبوا إلى ملكان صاحب مذهبهم، وقيل إنهم نسبوا إلى مركان وهو قيصر من قياصرة الرّوم، وكان قائماً على نصرة مذهبهم، فقيل لهم مركانيّة، ثم عُرّب إلى ملكانيّة. انظر: صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٧٩. كما يذكر المقريزي أن نصارى الكرك أيضاً كانوا على ذلك المذهب الملكاني، ويبدو أن أصلهم من الكرك، ثم نزحوا إلى مصر وأقاموا بها. انظر: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ج٢، تحقيق: محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٢م، ص٢٤٥.

[٢٠] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٢١؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٤؛ مفضل، النهج السديد، ج١٢، ص١٣٥؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٤٤.

والمملوكي الصليبي في بلاد الشام بصفة خاصة، فقد ذُكرت العديد من الأسباب التي أدت إلى حريق الباطلية؛ أولها حالة الغضب والكراهية التي سيطرت على النصارى عقب ورود الأخبار بانتصارات المسلمين في الأندلس على ذويهم آنذاك[٢١]، وهذا الأمر يبدو غير منطقياً في المصادر الإسلامية حيث أنه لم يحدث أن تعاطف النصارى المصريين الأرثوذكس مع نظرائهم الغربيين الكاثوليك جراء الصراع بين الكنائس الرسولية لاسيما روما والاسكندرية.

ثاني تلك الأسباب شروع الظاهر بيبرس في تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام منذ أن جلس على عرش السلطنة، فقد أطنبت المصادر المملوكية في ذكر فتوحات الظاهر بيبرس وتقليمه لأظافر المغول والصليبيين على حد سواء بما له من صفات أهلته لذلك؛ فقد كان كثير الاهتمام بالاطلاع على أخبار أمرائه وأعيان دولته حتى إنه لم يخف عليه منها صغيرة ولا كبيرة[٢٢]، كما كان خفيف الركاب والحركة، جبارًا فى الأسفار والفتوحات، دائم الانتقال بين أنحاء دولته صيفا وشتاءً[٢٣]، لذا كانت أخبار دولته المترامية الأطراف والممتدة من أطراف حلب إلى أطراف النوبة، ترد عليه بكرة وعشيا[٢٤]، وتبعًا لذلك بدأ في رسم سياسته العسكرية للتعامل مع المغول والصليبيين وغيرهم من أعداء الدولة المملوكية.

والثابت أن بيبرس شرع في تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام مع مطلع ستينيات القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي؛ فبدأ في توجيه ضرباته صوب مدنهم وقلاعهم، فأسقط قلاع أرسوف وقيسارية في عام٦٦٣هـ/١٢٦٥م[٢٥]، ثم استكملها بفتوح صفد وصور وطرابلس

---

[٢١] أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، بيروت ١٩٧٤، ص٢٣٤-٢٣٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١١.

[٢٢] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق: أحمد حطيط، فيسبادن ١٩٨٣، ص٣١١؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٢٦٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٧٧، ١٨٢.

[٢٣] الفيومى، نثر الجمان في تراجم الأعيان، ج٥، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٤٦ تاريخ، ورقة ٧٠؛ المقريزى، السلوك، ج١ ق٢، ص٦٣٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ص١١٠.

[٢٤] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٣١٣.

[٢٥] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز خويطر، الرياض ١٩٧٦، ص٢٣٥ وما بعدها؛ شافع بن علي، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، ط٢، الرياض١٩٨٩، ص١٨١-١٨٣؛ ابن الدواداري، كنز الدرر، ج٨ الموسوم بـ"الدرة الزكية في الدولة التركية"، تحقيق:أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١، ص١٠٧؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٢٧، ص٤٠٦؛ الذهبي،

في عام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م[٢٦] ويافا والشقيف وأنطاكية عام٦٦٦هـ/١٢٦٧م[٢٧]، وعسقلان وحصن الأكراد في عام٦٦٩هـ/١٢٧٠م(٢٨)، وتبع سقوط تلك القلاع قيامه بإحراق كنائسهم بطبيعة الحال[٢٩].

ومع فرضية تعاطف الأقباط المصريين مع المسيحيين اللاتتين- نظرياً- وكرد فعل لتلك الضربات عزم الصليبيون في بلاد الشام على قصد الديار المصرية لاسترداد ما أخذه بيبرس منهم[٣٠]، والمرجح أن تواتر الأخبار إلى النصارى بمصر بعزم ذويهم في بلاد الشام غزو مصر قد شجعهم، فأرادوا تخفيف الضغط عن الصليبيين في بلاد الشام؛ بصرف نظر بيبرس إلى مصر بإحداث القلاقل بها، وتلك السياسة اتبعها سلاطين بني أيوب من قبل؛ حيث استخدمها نور الدين محمود الذي كان يضغط على الممتلكات الصليبية في بلاد الشام أثناء تعرض جيشه بقيادة أسد الدين شيركوه للحصار من قبل الصليبيين بقيادة عموري الأول ملك بيت المقدس في مدينة بلبيس في مصر، وغالبًا ما كانت تلك السياسة تؤتي أكلها بالفعل .

وخير ما يُدعم هذه الفرضية هو أن فترة الست سنوات الأخيرة من عهد الظاهر بيبرس (٦٧٠-٦٧٦هـ /١٢٧١-١٢٧٧م) لم تشهد أية مضايقات أو احتكاكات بين المسلمين وأهل الذمة؛ نظراً لتوجيه بيبرس نشاطه العسكري صوب المغول آنذاك، بعد أن قام بتصفية معظم المدن والقلاع الصليبية في مطلع فترة حكمه.

العبر، ج٣، ص٣٠٧؛ ابن حبيب، درة الأسلاك في دولة الأتراك، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦١٧٠ تاريخ، ورقة١٨؛ سيد الحريري، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، القاهرة ١٣٢٩هـ، ص٣٣٦.

[٢٦] ابن الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص١١٦؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٢٧، ص٤٠٨؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، ورقة ١٩؛ اليماني، غربال الزمان في وفيات الأعيان، تصحيح: محمد ناجي زعبي، دمشق١٩٨٥، ص٥٤٣.

[٢٧] ابن الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص١٢٤؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٢٧، ص٤١١؛ اليماني، غربال الزمان، ص٥٤٥.

[٢٨] ابن الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص١٥١-١٥٢؛ ابن حبيب، درة الاسلاك، ورقة٢٢؛ المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٦؛ اليماني، غربال الزمان، ص٥٤٨.

[٢٩] النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٧٣.

[٣٠] ابن الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص١١٤.

المبحث الثاني: العهدة العمرية وحريق الباطلية:

حقيقة لا نعرف تمامًا لماذا فكر الظاهر بيبرس في عقوبة حرق أهل الذمة أحياء دون أن يبدأ أولا بتطبيق الشروط العمرية التي طالعتنا بها المصادر السابقة واللاحقة وقت حدوث المضايقات بين الطرفين؟ وهل كان وقع الحريق سيئًا فأراد أن يكون العقاب سريعاً فيذيقهم الجزاء من جنس عملهم؟ وهل عقوبة الحرق حيًّا كانت ضمن عقوبات الشروط العمرية؟ أم أن تنفيذها كان سابقة تاريخية؟

وفيما يتعلق بالتساؤل الأول حول العهدة العمرية التي أشار إليها بيبرس عقب حريق الباطلية، وقيامه باعتقال النصارى واليهود، فيطالعنا نص أوردته بعض المصادر من أنه" **أنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهودهم**"[٣١]؛ وهذا النص يؤكد وجود العهدة العمرية بين المسلمين وأهل الذمة والتي تُنسب إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وحقيقة ثمة مصادر تكلمت عن هذه العهدة وأكدت صحتها تماماً؛ من هذه المصادر في بواكير العصر المملوكي كتاب "**المجموع شرح المهذب**" لأبي زكريا النووي[٣٢](ت٦٧٦هـ/١٢٧٧م)، وكتاب"**الشرح الكبير على متن المقنع**" لابن قدامة [٣٣](ت٦٨٢هـ/١٢٨٤م)، وكتاب "**رد على أهل الذمة ومن تبعهم**" لغازي الواسطي[٣٤](ت٧١٢هـ/١٣١٢م)، وكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية[٣٥] (ت٧٢٨هـ/١٣٢٦م) "**اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم**"، وغيرها من المصنفات التي تناولت ما يُعرف بالعهدة التي تنظم طبيعة العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة وقت الأزمات منعاً للمشاحنات بين جميع الأطراف.

---

[٣١] النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٧٣؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٥.

[٣٢] كبير فقهاء الشافعية في عصره، ولد في بلدة نوي بحران، له العديد من المصنفات، عمل في المدرسة الإقبالية، ومشيخة دار الحديث الأشرفية، توفي بنوى، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٢٦-٣٢٧.

[٣٣] ولد في عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، وتولي منصب القضاء لمدة اثنتي عشرة سنة، وقام بشرح المقنع في عشرة مجلدات. انظر: الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٢٩١-٢٩٢.

[٣٤] ولد بحلب، وعمل بديوان الاستيفاء، ثم كتابة الجيش بحلب، وكتابة الإنشاء بالقاهرة. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٩٤-٢٩٥.

[٣٥] أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله، ولد عام٦٦١هـ/١٢٦٢م، انتقلت اسرته إلى دمشق بعد ولادته بست سنوات، له عدة مصنفات في شتى أنواع العلم والفقه والتفسير والأصول وغيرها كثير. انظر للمزيد: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٧، ص١١-١٩.

هذا وقد انقسمت العهدة العمرية كما تبين من خلال المصادر الإسلامية إلى عدة شروط دينية واجتماعية وأمنية واقتصادية؛ فالشروط الدينية يمكن تلخيصها في عدم بناء الكنائس ودور العبادة، وعدم تجديد الكنائس التي تتعرض للخراب، أو التي تقع في خطط المسلمين وأحيائهم، وألا تضرب النواقيس في الكنائس إلا ضربًا خفيفًا، وعدم إظهار الصليب على الكنائس، وعدم رفع أصواتهم أثناء الصلاة والقراءة، وعدم إظهار شرائعهم وكتبهم في أسواق المسلمين، وعدم ممارسة شعائرهم وأعيادهم وصلواتهم خارج كنائسهم، وعدم مجاورة المسلمين بالخنازير، وعدم رفع أصواتهم مع جنائزهم، ولا يدعون ولا يرغبون أحدًا بالدين النصراني، ولا يمنعون أن يدخل أحد أقربائهم الإسلام، فضلًا عن عدم تعليم أبنائهم القرآن[٣٦].

أما الشروط الاجتماعية فمنها أن يسمح النصارى للمسلمين بنزول الكنائس الموجودة، وأن تكون أبوابها بحجم يسمح بمرور المارة فيها، وأن يتميزوا بالملابس عن المسلمين أينما كانوا، ولا يتشبهوا بهم في أمور عديدة كالقلانس والعمائم، ولا الأسماء ولا الكنى، وأن يقص النصارى شعر مقدم الرأس، وأن يضعوا الحزام على أوساطهم، وألا تكتب أختامهم بالعربية، وأن يكون ركوبهم للخيول بغير سروج، وأن يقوموا عن المسلمين في المجالس، وأن يحترم النصارى المسلمين في مجالسهم، وأن يقوموا بضيافة المسلمين عابري السبيل لمدة ثلاثة أيام، وألا يطلع النصارى على منازل المسلمين[٣٧]، وعدم كتم الغش على المسلمين[٣٨].

أما الشروط الأمنية فتحوي عدم إيواء الجواسيس في الكنائس والمنازل، وعدم حمل السلاح بأنواعه، إضافة إلى إرشاد المسلمين في الطرقات. أضف إلى ذلك الشروط الاقتصادية التي تشمل منع تجارة الخمور، وعدم مشاركة النصارى للمسلمين في تجارة إلا في حالة أن يكون المسلم هو صاحب التجارة[٣٩].

---

[٣٦] الخلال، أحكام أهل الملل من الجامع لمسائل الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: سيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٤، ص٣٥٧-٣٥٨.

[٣٧] الخلال، أحكام أهل الملل، ص٣٥٧-٣٥٨.

[٣٨] الربعي، شروط النصارى وبذيله أحاديث لأبي محمد عبد الوهاب بن أحمد الكلابي، تحقيق: أنس بن عبد الرحمن العقيل، دار البشائر، بيروت ٢٠٠٦م، ص٢٢-٢٨

[٣٩] الخلال، أحكام أهل الملل، ص٣٥٨.

ومن المرجح أن المسلمين لم يعملوا بتلك الشروط في أية مرحلة من مراحل القرون الإسلامية الأولى، وأن تطبيق هذه الشروط حدث منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وكان استجابة لحالات التوتر الاجتماعي بين أهل الذمة والمسلمين، فكانت نصوص تلك العهدة بمنزلة احتجاج من بعض المسلمين على مكانة النصارى في المجتمع الإسلامي، وأن هذه الشروط صار تنفيذها مطلبًا جذريًا وقت حدوث الاضطرابات الاجتماعية بين الطرفين، ومعها تصبح السلطة الحاكمة مطالبة بتقديم استجابات سياسية معتدلة ضد أهل الذمة، وعليه كانت تستخدم بعض الشروط كالملابس وغيرها، ثم يزداد تشددها مع اتهام بعض الحكام بتساهلهم مع النصارى، فيمسي التطرف مطلبًا دينيًا تخالفه الدولة في معاملتها المتزنة مع أهل الذمة.

من سياق الأحداث المتتابعة يبدو واضحاً أن الظاهر بيبرس لم يقم بتطبيق الشروط العمرية كونها لن تحقق غايته الاقتصادية، لذا لجأ إلى التلويح بعقوبة حرق أهل الذمة أحياء بوصفها وسيلة سريعة لملء خزانة الدولة من أموالهم؛ لعلمه سلفًا بأنهم يشكلون عنصرًا فاعلًا في المجتمع الإسلامي بسيطرتهم على العديد من الوظائف الحيوية في الدولة المملوكية؛ لاسيما الوظائف المالية.

على الجانب الآخر إذا جاز لنا أن نلتمس العذر للظاهر بيبرس في فرض تلك الأموال الباهظة على النصارى فليس إلا بُغية إعادة إعمار حي الباطلية مرة أخرى بعد التدمير الذي لحق به على حد قول ابن دقماق[٤٠]؛ غير أن المصادر المملوكية طالعتنا-كما ذكرنا سابقًا- بأن هذا الحي ظل خرابًا يبابًا ما يزيد على قرن من الزمان، ولم تبدأ عمارته إلا في العصر الجركسي، وعليه لنا أن نتساءل: أين ذهبت الأموال التي جباها بيبرس من أهل الذمة عقب حريق الباطلية؟ والإجابة المنطقية لذلك التساؤل هو أن عصر الظاهر بيبرس شهد الكثير من الحروب الطاحنة ضد المغول والصليبيين على حد سواء، وهو ما استنزف خزانة الدولة المملوكية من جراء تجهيز الجيش المملوكي، ومن ثمّ باتت الخزانة في حاجة لمزيد من الأموال؛ فكانت أموال أهل الذمة هدفًا يفي بجزء من احتياجاته؛ يشهد بذلك أيضاً أنه فرض ضرائب باهظة على أهل دمشق تلبية لهذا الغرض.

---

[٤٠] الجوهر الثمين، ص٢٧٦.

إما الإجابة عن التساؤل الخاص بعقوبة الحرق؛ فأغلب الظن أن هناك العديد من الأسباب الشخصية التي تجعل بعض الخلفاء والسلاطين يقررون تلك العقوبة تحت وطأة الغضب؛ منها على سبيل المثال لا الحصر: الانتقام وإشفاء الغليل أو عقوبة الخيانة أو الجزاء من جنس العمل، مع الأخذ في الاعتبار أن إنزال عقوبة الحرق كان سابقًا بالفعل على العصر المملوكي؛ بيد أنها اقتصرت على حرق الجثث بعد موتها دون حرقها وهي حية، والأمثلة على ذلك كثيرة في عصر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وحذا حذوه العديد من الخلفاء الفاطميين الذين درجوا على التخلص من جثث مناوئيهم بحرقها بعد موتها[٤١]، إلا أن العهدة العمرية لم تتضمن عقوبة الحرق حيًّا لا من قريب ولا من بعيد، وإن حدثت فهي من فعل أهواء السلاطين؛ وفي حالة الظاهر بيبرس هنا فأغلب الظن أنه استخدمها كورقة ضغط للنيل من أموال النصارى.

المبحث الثالث: **ظهور الراهب بولص الحبيس**:

على أية حال همَّ الظاهر بيبرس بتنفيذ عقوبة الحرق في حق النصارى واليهود في القاهرة لولا أن ظهر على مسرح الأحداث الراهب بولص الحبيس، الذي انبرى لبيبرس وطلب الفداء عنهم، واستجاب بيبرس للتسوية المالية وأصدر عفوه عن أهل الذمة مقابل دفع المال. فمن هو الراهب الحبيس؟ متى ولد؟ وكيف نشأ؟ وما علاقته بالظاهر بيبرس قبيل حريق الباطلية وبعده؟ وما هي أهميته بالنسبة لأهل الذمة آنذاك؟ وكيف قُتل على يد الظاهر بيبرس؟ تلك التساؤلات سيجيب عنها الباحث في ضوء شذرات النصوص المتاحة في المصادر المملوكية.

الثابت أن المصادر المملوكية ضنت علينا بالحديث عن مولد الراهب الحبيس ونشأته الأولى عدا بعض الإشارات التي تميط اللثام عن بواكير حياته؛ فقيل أن إسمه الأصلي ميخائيل[٤٢]، وعقب انخراطه في سلك الرهبنة أُطلق عليه بولص الراهب[٤٣]، أو بولص المصري

---

[٤١] انظر أمثلة على ذلك في: ابن حجر، رفع الإصر عن قضاة مصر، ج١، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٨، ص١٤٢، ٣١٩-٣٢٠؛ المقريزي، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج٢، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٩٦، ص٤٦-٤٧؛ محمد عبد الله عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، دار الرفاعي، الرياض ١٩٨٣، ص١٠٧.

[٤٢] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٩٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٠٣؛ ج١١، ص٢٣٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٤٣؛ الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج١، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة (ب.ت)، ص٢٠٣.

القبطي[٤٤]، وهو أحد نصارى مصر[٤٥]، المشهور بالحبيس[٤٦]، أو الحبيس النصراني[٤٧]، لم يُعلم على وجه التحديد تاريخ مولده ومكانه، وإن كان المرجح أن مولده بمصر، حيث تخبرنا المصادر بأنه انتقل من مصر إلى بلاد الشام في عهد السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب، ومكث بالشام إلى وقت انتهاء الدولة الأيوبية، ثم سرعان ما قفل عائدًا إلى مصر مرة أخرى مع مطلع الدولة المملوكية في عهد السلطان المعز أيبك[٤٨].

بدأ الراهب بولص حياته كاتبًا في ديوان الإنشاء، ثم سلك طريق الرهبنة فانقطع للعبادة في جبل حلوان بالقاهرة، و"**كان عجيب الحال**"[٤٩] حتى قيل إن" **أمره كان خارقًا والله أعلم**"[٥٠]، وخلال فترة الرهبنة نسجت حوله الكثير من الأساطير، فكانت " **له حكايات غريبة في كثرة**

---

[٤٣] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٨٩؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٧، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت ١٩٨٦، ص٥٦١.

[٤٤] الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق: جاكلين سوبلة، دمشق ١٩٧٤، ص٥٨.

[٤٥] النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٩٧.

[٤٦] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٢١، ٣٩٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٠٣؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٣؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج٣، ص٤٤٣؛ الدليل الشافي، ج١، ص٢٠٣. ذكر اليافعي كلمة" الحنش" بدلاً من" الحبيس" دون جُلّ المصادر، ولعله خطأ حدث أثناء نسخ المخطوطة. انظر: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج٤، ص١٢٥. وأورد الشابستي والعمري أن مرادفها في اللغة السريانية هي كلمة أخويشا أو أحويشا. انظر: الديارات، نشره: كوركيس عواد، مطبعة المعارف العراق ١٩٥١، ص٧٤؛ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب، القاهرة ١٩٢٤، ص٣٠٠(باب البيوت المعظمة عند الأمم) على الترتيب، والحَبْسُ :الرّاهِبُ من النَّصارى اللّازِمُ للبَيْعَةِ كالمَحْبُوْسِ. الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، مج٤، عالم الكتب، بيروت ١٩٩٤، ص٣١٤. ويقال للراهب الزاهد، الذي ربط نفسه عن الدنيا الربيط. وقيل له :الحبيس. وذكر أن الربيط، هو المتقشف الحكيم وأن الحبيس هو الذي حبس نفسه في سبيل الله، فقبعوا في الأديرة وابتعدوا عن الناس. فصاروا كالحبساء. انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج١٢، ط٤، دار الساقي، بيروت ٢٠٠١م، ص٢٢٣.

[٤٧] النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٩٧؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج٣، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت (ب.ت)، ص٣١٥؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٢، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٧، ص٢٩٥.

[٤٨] الصقاعي، تالي وفيات الأعيان، ص٥٨.

[٤٩] الذهبي، تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١٣.

[٥٠] مفضل، النهج السديد، ج١٢، ص١٣٧.

المال"[٥١]؛ لعل أبرزها قصة الكنز الذي عثر عليه في إحدى المغارات؛ والذي يقال أن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله قام بدفنه فيها[٥٢]؛ بل قيل أيضاً أن تلك الثروة الطائلة التي نعم بها كانت من جراء اشتغاله بعلم الكيمياء[٥٣]، وهو ما جعل بعض الناس تتلصص أخباره وتترقب أفعاله فلم يعلموا شيئًا من هذه الإشاعات التي أثيرت حوله[٥٤]، وقد يكون من المرجح أن تلك الأموال تخص أحد الأديرة وهو المتصرف فيه، أو مالاً تحت يده من الصدقات والتبرعات، وخير شاهد على ذلك أن طريقة السداد- كما ستأتي لاحقاً- تفيد أن الصيارفة كانوا نصارى ويدفعون ما يأمر به الراهب بناء على توقيعه على الاوستراكا أو الصك. وهذا يدخل في تعاملات النصارى مع الاقتصاد الديراني، كجزء من الصدقات التي تدفع للدير.

وقد ذاع صيت الراهب الحبيس وقصة كنزه، فبدأ الفقراء والصعاليك من سائر الأديان والملل والنِحَلِ يفدون إليه طمعاً في الحصول على نفقاتهم منه، إضافة إلى مساعدته للأشخاص الذين صودرت أملاكهم[٥٥]، فضلًا عن قيامه بالوفاء بضريبة الجوالي[٥٦] التي كانت مقررة على

---

[٥١] ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج١، ص٢٠٣.

[٥٢] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٢١؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٩٧؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٣١٥؛ تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١٣؛ مفضل، النهج السديد، ج١٢، ص١٣٥؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص١٢٥؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٤٤؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٩٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٥٦١. ذكرت بعض المصادر قصة الكنز الذي عثر عليه في المغارة دون ذكر اسم الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي انظر: الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٤؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٠٣.

[٥٣] ارتبط علم الكيمياء عند الأثرياء وحائزي الثروات بالفكرة الخرافية علي سيطرت عقول بعض المسلمين وأهل الذمة على حد سواء بتحويل التراب إلى ذهب باستخدام تراكيب وأمزجة هذا العلم، وقيل قديمًا إن الذي توصل إلى هذا السر هو قارون في عهد نبي الله موسي عليه السلام.

[٥٤] الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، ص٥٩.

[٥٥] الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٤؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٣١٥؛ تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٠٣؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص١٢٥؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٤٤؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٩٥-٢٩٦؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٥٦١.

[٥٦] هي ما يؤخذ من أهل الذِّمّة عن الجزية المقرّرة على رقابهم في كل سنة، ولها ناظر من جهة السلطان، ويتبعه مباشرون من عمال وشهود يقومون بحصر أسماء المستجدين من النصارى وإضافتهم إلى القوائم الموجودة في الديوان. للمزيد تفصيلاً انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥٣٠.

النصارى في مصر[٥٧]، ثم سرعان ما وصلت أخباره إلى الظاهر بيبرس فأمر والي القاهرة بإحضاره للمثول بين يديه للمرة الأولى، وأمره بيبرس بإحضار ذلك المال، غير أنه رفض طلبه، كاشفًا له أنه ما من وسيلة للحصول عليه من يده مباشرة، ولكن في حال قيامه بمصادرة الأملاك أو فرض الجبايات على الرعية، حينها سيتدخل لمساعدة هؤلاء الغارمين المصادرين، مقرًا ذلك بقوله:"**فإني أعطيه وأساعده على خلاص نفسه منك فلا تعجل**"[٥٨].

وبالرغم من أن بيبرس أطلق سراح الراهب بولص في اللقاء الأول بينهما بشفاعة الأمراء له، فإن الظاهر عزم في قرارة نفسه على تقليم أظافره، والاستيلاء على أمواله التي تمثل مصدر قوته، خاصة بعد أن أوحى إليه بالطريقة المناسبة التي يستطيع بها الوصول إلى مبتغاه، ويبدو ظاهرًا للعيان أن بيبرس استشاط غضباً من هذا الراهب لقيامه بسداد المصادرات والديون التي فرضها على بعض الرعية عامة، وأهل الذمة خاصة، فما فعله يُظهر السلطان بمظهر الظالم المستبد في حين يبدو الراهب كالمنقذ الذي يلجأ إليه الرعية لرفع الظلم عنهم، وهو ما يؤدي إلى زيادة شعبيته وسط العامة على حساب السلطان .

ويفهم من النص السابق أن معرفة الظاهر بيبرس بالراهب الحبيس كانت قُبيل حريق الباطلية في عام٦٦٣هـ/١٢٦٥م، وأن هذا اللقاء اعتمد فيه رجل الدين النصراني على شعبيته الجارفة بين عامة الشعب، وهو ما أدى إلى نجاته من براثن بيبرس بشفاعة بعض كبار الأمراء المماليك، غير أن سير الرواية كان يحمل في طياته صدامًا مرتقبًا مع هذا الراهب الذي تحدى السلطان ولم يخبره عن مصدر تلك الأموال الضخمة التي بحوزته.

وقد جاءت الفرصة للظاهر بيبرس للحصول على مال الراهب الحبيس في حريق الباطلية عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م–سالف الذكر–وصورت المصادر لنا هذا المشهد المفجع؛ حيث جُمع النصارى واليهود عن بكرة أبيهم على اختلاف طبقاتهم "**ولم يبق إلا من هرب**"، ثم قام بتكتيفهم

---

[٥٧] الصفاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، ص٥٩.

[٥٨] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٢١؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٩٧؛ مفضل، النهج السديد، ج١٢، ص١٣٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١٣.

بالحبال، وحفر لهم حظيرة ضخمة، وأمر بوضع أعشاب الحلفاء والأحطاب الجافة بها، وأضرم فيها النار تمهيدًا لإلقائهم فيها على حد سواء [٥٩].

بدا المشهد حالك السواد وكأننا سنرى قصة أصحاب الأخدود مرة أخرى، حيث اجتمع عامة الشعب في القاهرة وكانوا غير متعاطفين مع أهل الذمة؛ وسيطر عليهم الغضب بسبب هذا الحريق الذي أتى على الأخضر واليابس في هذا الحي؛ لذا اجتمعوا من كل حدب وصوب لرؤية أهل الذمة "**والتشفي بحرقهم لما نالهم من البلاء**"[٦٠].

ورغم عظم ذلك الموقف طالعتنا المصادر بالطرائف في مشهد حرق بيبرس لليهود والنصارى في القاهرة على حد سواء، فقد انبرى أحد صيارفة اليهود البارزين ويدعي **ابن الكازروني** للظاهر بيبرس متوسلًا لا للعفو عن اليهود أو طلب الصفح عنه شخصياً؛ بل الطريف أنه طلب ألا يتم حرق اليهود مع النصارى في حفرة واحدة، بل عليه أن يحرق كل طائفة في حفرة مستقلة؛ مؤلباً مشاعر السلطان عليهم، فقد وصف النصارى بأنهم" **الكلاب الملاعين أعداؤنا وأعداؤكم**"، وكان هذا الطلب العجيب سببًا في ضحك بيبرس وسخريته قبل أن تحدث التسوية المالية من قبله[٦١].

ويبدو واضحاً أن الظاهر بيبرس علم جيداً كيف يتعامل مع هذا الراهب، وعرف من أين تؤكل الكتف، ولم يغب عن باله مطلقاً منذ لقائه الأول مع هذا الراهب حجم ثروته المتضخمة التي صارت تلوك بها ألسنة العامة والخاصة، وجاءته الفرصة على طبق من ذهب في هذا الحريق؛ فاستخدم ورقة التهديد بحرق اليهود والنصارى في حفرة عظيمة، وقد يبدو واضحًا أن تدخل بعض كبار أمراء المماليك لطب الشفاعة في عدم حرقهم هو من وحي بيبرس نفسه لفتح

---

[٥٩] الذهبي، تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١٢؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٤؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٠٣؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٥.

[٦٠] المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٥. تعود قصة أصحاب الأخدود إلى فترة ما قبل الإسلام في مدينة نجران في بلاد اليمن، والتي تم التنكيل فيها بالنصارى قديماً، وحرقهم أحياء في أخدود عظيم بتلك البلدة وإذا كانت النصرانية قد شهدت تعاطفًا من العامة وقت حريق النصارى في نجران وقتذاك، إلا أن الوضع بات مختلفاً في القاهرة المملوكية.

[٦١] المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٥-١٦.

باب التفاوض حول كمية الأموال التي تكفي للعفو عنهم وشراء أنفسهم، وكان من بين هؤلاء الأمراء الأمير فارس الدين آقطاي أتابك العسكر[٦٢].

وخير شاهد على ذلك ما رسمه الظاهر بيبرس في مخياله من قبوله الشفاعة فيهم، غير أنها لم تكن مِنّة منه، لأنه عبر عن رغبته المالية سريعاً بأن طلب منهم" **أن يشتروا أنفسهم**"، ومعنى ذلك أن يفتح المزاد حول أكبر كمية من الأموال تصب في جيب الدولة، لعلمه مسبقًا بأن الراهب الحبيس سيظهر في دور المنقذ للذود بماله عن أهل الذمة عامة، وبني ملته بصفة خاصة كما صرح له من قبل، لذا فرض عليهم مبلغًا ضخمًا من المال، وهذا ما حدث بالفعل حيث ظهر الراهب في مشهد الحرق، ولازم الأمير **سيف الدين بلبان المهراني**–المكلف من بيبرس لجباية المال– الذي استعرض أهل الذمة أمامه، وما هو مقرر على كل واحد منهم، وكل من عجز عن أداء ما عليه قام الراهب بالوفاء عنه" **سواء كان يهوديًا أو نصرانيًا**"[٦٣]، ثم ختم المشهد بتعهد أهل الذمة للسلطان بعدم العودة إلى ما " **كانوا يعتمدونه من المنكرات، ولا يخرجون عن الذمة وشرطها**" [٦٤].

هذا وقد اختلفت المصادر حول حجم الأموال التي قررت على أهل الذمة، وإن كان وصف هذه العقوبة المالية" **بالعظيمة**" يدل على حجمها[٦٥]؛ فعلى حين **بالغ الكتبي والصفدي** حين ذكرا أنه فرض عليهم خمسمائة ألف دينار في كل سنة ولم يحددا المبلغ الإجمالي[٦٦]، اكتفى ابن تغري بردي بالقول بأن السلطان فرض عليهم مبلغ خمسمائة ألف دينار(٦٧)، وأورد ابن دقماق والمقريزي أن المبلغ كان خمسين ألف دينار فقط[٦٨]، على الجانب الآخر نجد أن **مفضل واليونيني** ذكرا أنه كان خمسمائة ألف دينار تحمل إلى بيت مال المسلمين، ويتم تقسيطها على عشر سنوات بمعدل خمسين ألف دينار سنويًا، يتم تقسيمها على أعداد اليهود والنصارى كل

---

[٦٢] المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٥؛ السلوك، ج٢، ص٢٥.

[٦٣] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٢١؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٤٤.

[٦٤] النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٧٤؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٥.

[٦٥] العيني، عقد الجمان، ج١، ص٤١٠.

[٦٦] فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٤؛ الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٠٤ على الترتيب.

[٦٧] ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٤٤.

[٦٨] الجوهر الثمين، ص٢٧٧؛ الخطط، ج٣، ص١٥؛ السلوك، ج٢، ص٢٥ على الترتيب.

حسب مقدرته[٦٩]؛ على أن يلتزم بطريرك النصارى بهذا المبلغ أمام السلطان[٧٠]، ويميل الباحث إلى ترجيح الرأي الأخير الذي أورده مفضل واليونيني لكونهما أقرب زمنيًا للحدث من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن رأيهما كان يقضي بتقسيط هذا المبلغ الكبير على عدة سنوات؛ بمعنى أن يدفع النصارى مبلغ الخمسمائة ألف دينار على عشر سنوات تبدأ في عام٦٦٣هـ/١٢٦٥م وتنتهي في عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م خلال فترة حكم بيبرس، كما أن هذا الرأي الأخير يتسق مع ما طالعتنا به المصادر من أن إبطال المقرر الذي كان على النصارى حدث في دولة الملك السعيد بركة خان (٦٧٦هـ-٦٧٨هـ/١٢٧٧-١٢٧٩م) [٧١]، وقيل أيضاً إن إبطال هذا المقرر حدث في عهد المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨هـ-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) [٧٢]، وهو ما يشي بحدوث تلاعب في الأوراق المقررة على النصارى بحيث طال الأمد عدة سنوات، وتم إرهاقهم بدفع مبالغ مالية طائلة أخرى دون سند أو اتفاق.

على أية حال انتهى الفصل الأول بين الظاهر بيبرس والراهب الحبيس عقب حريق الباطلية ٦٦٣هـ/١٢٦٥م بالتسوية المالية التي بمقتضاها دفع الراهب عن أهل الذمة الأموال المقررة عليهم، لينشغل بيبرس بأسفاره وفتوحاته في بلاد الشام، في الوقت الذي ذاع فيه صيت الراهب أكثر بكثرة عطاياه حتى قيل إنه " **كان يعطي ما ينافر العقول**"[٧٣]؛ وأثر عنه مناداته للناس بقوله:"**من لم يكن معه شيء أديت عنه في المصادرة**"[٧٤]؛ فيزور الحبوس-السجون- ومن وجد عليه دين من أصحابها وعجز عن الوفاء به قام بسداده سواء كان ثقيلًا أو خفيفًا، وبلغ مقدار ما كان يعطيه لمن يقصده من عشرة دراهم إلى ألف درهم[٧٥]، ثم توسع في نشاطه الخيري ليشمل معظم أرجاء مصر بوجهيها القبلي والبحري؛ فنجده يسافر إلى صعيد مصر

---

[٦٩] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٢١؛ مفضل، النهج السديد، ج١٢، ص١٣٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١٢.

[٧٠] النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٧٣.

[٧١] المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٦.

[٧٢] المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٢٢.

[٧٣] النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٩٧.

[٧٤] الذهبي، تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١٣.

[٧٥] الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، ص٥٩.

ليؤدي المقرر عن النصارى هناك[٧٦]، ويرحل إلى الإسكندرية ليستطلع أحوال النصارى بها، ويذود عنهم "**فرأى أهلها منه ما هالهم من بذل الأموال**"[٧٧]، حيث وفّى الديون التي كانت مثقلة على كاهلهم بأشكالها كافة، بل وكل" **من وجده ذا هيئة رثة واساه، ومن شكا إليه ضرورة أزاحها عنه، فانتفعت به سائر الطوائف**"[٧٨].

وبدأ الناس يترصدون خط سير الراهب الحبيس؛ بغية الاحتيال عليه، وطمعًا في ماله؛ فإذا ما دخل بلد ما تظاهر اثنان من الأشخاص بأنهما رسولان من القاضي أو مستوفي المالية، ثم يقومان بالقبض على أحد الأشخاص التابعين لهما، وينهالا عليه بالضرب ليلفتا انتباه هذا الراهب، وبالفعل يستغيث هذا المحتال به صائحًا: يا أبانا، يا أبانا، فيرد عليه: ما باله؟ فيقولان عليه دين، أو اشتكت عليه زوجته، فيقول: على كم؟ فيقال له: على ألفين أو أقل أو أكثر؛ فيقوم بكتابة المبلغ المطلوب على شقفة فخارية أو قطعة ورقية، وموجهة إلى بعض الصيارفة الذين يقومون بصرف المبلغ المدون في الحال[٧٩] .

وقد أعطانا المؤرخ الصقاعي معلومات غاية في الأهمية عن كيفية صرف الأموال من قبل الراهب الحبيس من خلال قصة رُويت له من قبل شمس الدين ابن أخو الصاحب جمال الدين بن مطروح؛ مؤداها أن شمس الدين هذا سافر إلى بلاد الحجاز في سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م فتم اعتراض طريقه من قبل العربان الذين استولوا على متعلقاته، فقفل عائدًا إلى مصر فقيرًا لا يملك قوت يومه، فأراد زيارة كاتب الأمير **الغتمي** في بيته لعله يساعده في مصيبته، فإذا بالراهب الحبيس يأتي راكبًا حماره، ودخل بيت الكاتب، ورأى شمس الدين هذا، فسأل عن حاله؟ فأخبره صاحب المنزل بقصة استيلاء العربان على أمواله في الحجاز، فطلب قطعة من الورق قدر نصف كف اليد ودواة للكتابة، وكتب فيها شيئًا وطواها، وأعطاها إلى شمس الدين قائلاً له:" **يا**

---

[٧٦] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٢١-٣٢٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١٣؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٤؛ مفضل، النهج السديد، ج١٢، ص١٣٦؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٠٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٤٤.

[٧٧] النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص ٩٧؛ مفضل، النهج السديد، ص١٣٦.

[٧٨] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٢١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١٣.

[٧٩] الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٤؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٠٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٤٥.

سيدنا إذا خرجت إلى برّا اقرأها"، ثم خرج بعد أن أكل طعام الرهبان، وفتح شمس الدين الورقة فإذا بها:" **اسم الله تعالى، الحقير بولص، ألف درهم**"[٨٠].

احتار شمس الدين فيمن يُعطيه تلك الورقة، فقيل له:"**اعطها لمن اخترت من الصيارف، وخذ ما فيها**"، وفي الحال ذهب إلى أحد الصيارفة، وأعطاه الورقة ففتحها وقام بتقبيلها، ثم صرف للرجل الألف درهم المثبتة في الورقة، فطار فرحًا "**وكأنما حاز ألف دينار من الذهب**"[٨١].

توحي هذه الرواية من جهة بما لا يدع مجالاً للشك أن الصيارفة كانت لديهم تعاملات مع هذا الراهب، وكان يتمتع بالثقة لديهم، ومن جهة ثانية فإن قيام الصيرفي بتقبيل الورقة يعطي دليلًا على استحواذ النصارى على مهنة الجهبذة والصيرفة في مصر المملوكية بما لديهم من خبرة في هذا المجال، وأن هذا الصيرفي كان على ملة النصرانية ويعرف الراهب الحبيس جيداً، ومن جهة ثالثة فإن قول أحد الرجال لصاحب الورقة" **اعطها لمن شئت من الصيارفة**" يشي بأن الراهب كان يتمتع بشعبية جارفة وسط جموع الفقراء وأرباب الصيرفة في القاهرة في آن واحد، ومن جهة أخيرة تُثبت أنه كان هناك ترتيب بين الصيارفة ورهبان الأديرة بحيث في حالة العوز أو فك الرهن أو سداد الدين يقوم الصيارفة بعمل ذلك متى أرسل الراهب ما يفيد الحاجة.

وأغلب الظن أن هذا الراهب لم يغب من مخيال الظاهر بيبرس، فكلف الأخير بعض المماليك برصد تحركاته وحجم نفقاته من الأموال، فبلغ حجم الأموال التي أنفقها على الناس منذ حريق الباطلية٦٦٣هـ/١٢٦٥م وحتى عام٦٦٦هـ/١٢٦٧م حوالي ستمائة ألف دينار" **مضبوطة بقلم الصيارف الذين كان يجعل عندهم المال، ويكتب إليهم أوراقه بما يعطيه**"[٨٢]، فضلاً عن الأموال الأخرى–غير المُثبتة– التي كان يعطيها للناس سرًا ، والأموال التي يدفعها لتخليص من بالحبوس دون الرجوع إلى الصيارفة، واللافت للنظر أنه مع حجم ثرائه الفاحش ونفقاته على الفقراء والغارمين فإنه كان لا يأكل أو يشرب أو يلبس من هذا المال، بل كان النصارى

---

[٨٠] الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، ص٥٩.

[٨١] الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، ص٥٩–٦٠.

[٨٢] النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٩٧؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٣١٥؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص١٢٥.

يتصدقون عليه بما يحتاج إليه من المعونة!"[٨٣]، وهذا ما جعل اليونيني يعقب على أفعال هذا الراهب متعجبًا-رغم ضلاله من وجهة نظره- بقوله:" **فانظر إلى هذه النفس الأبية على ما هي عليه من الضلال**"[٨٤]، وحذا حذوه الذهبي الذي لعنه صراحة، وحمد الله على كونه نصرانيًا، فلو كان مسلمًا لقام الناس بتأليهه، معقبًا بأنه"**من لطف الله أنه غير مسلم، وإلا لو كان مسلمًا لألّهه الناس، وادعوا فيه النبوة أو القبطية**"[٨٥]، وهذه الأقوال بقدر ما هي ذم في شخص الراهب، فإنها تحمل في طياتها كم الشعبية التي كان يتمتع بها جراء أعمال البر ومساعدة الفقراء والغارمين من أهل الذمة عامة، والنصارى خاصة، بل والمسلمين للدرجة التي يشعر فيها الفقهاء بالفزع من فتنة هذا الراهب.

والثابت أن أفعال الراهب الحبيس جعلت الناس يرددون اسمه في مجالسهم، فزادت شعبيته، مما جعل الفقهاء في مدينة الاسكندرية يجتمعون، ويعقدون محضرًا أصدروا فيه فتواهم بضرورة قتل الراهب بولص خوفًا من افتتان" **ضعفاء نفوس المسلمين به أن يُضلهم ويغويهم**"[٨٦]، وتبعًا لذلك أمر بيبرس بالقبض عليه والمثول بين يديه للمرة الثانية، وكرر طلبه بتسليم المال الذي بحوزته، أو على أقل تقدير يخبره من أين حصل عليه؟ وكيف وصل إليه؟ وسلك معه أولاً أسلوب الترغيب والتلطيف[٨٧] بيد أنه أصر على موقفه الثابت، ولم يفصح له بشيء يتعلق بماله، وظل معتقلاً مدة يومين أو ثلاثة كان الخدم فيها يقدمون له طعام الرهبان[٨٨]، وزاد الطين بلة أن وصلت فتاوى فقهاء الإسكندرية إلى الظاهر في عام٦٦٦هـ/١٢٦٧م فلاقت القبول في

---

[٨٣] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٨٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١٣؛ الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، ص٥٩؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٤-٢٣٥؛ مفضل، النهج السديد، ص١٣٧؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٠٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٤٥.

[٨٤] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٩٠.

[٨٥] تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١٣. والقبطية هنا من دلالة النص تعني بدرجة كبيرة الديانة المسيحية.

[٨٦] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٨٩؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٣١٥؛ تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٠٤؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص١٢٥؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٤٥؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٩٦؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٥٦١.

[٨٧] الذهبي، العبر، ج٣، ص٣١٥؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص١٢٥؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٩٦.

[٨٨] الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، ص٦٠.

قلبه الذي سئم منه ومن عناده، فقام بتعذيبه والتنكيل به ليقر بالمال حتى مات تحت وطأة التعذيب، فأخرجت جثته من قلعة الجبل وألقيت على باب القرافة[٨٩].

وكان من الطبيعي عقب مقتل الراهب بولص أن يُعلم مصير أمواله، إلا أن بعض المصادر المملوكية أقرت بأنه لم يظهر من أمواله وثروته الطائلة أية دنانير، ولم يُعلم أين ذهبت تلك الأموال؟ وهل نفدت مع نفاد أجله؟ أم كانت مدفونة في مغارة يلجأ إليها الراهب بين الفينة والأخرى فخفي أمر ما بقي منها بعد مقتله؟ أم أنها مع أرجح الآراء كانت أموال تخص التنظيم الكنسي والرهباني في ظل الدولة الإسلامية [٩٠].

وكما كانت حياته مليئة بالإشكاليات أوقعنا الصقاعي(ت٧٢٦) في حيرة من أمرنا دون بقية المصادر المملوكية الأخري؛ خاصة فيما يتعلق بتاريخ وفاته؛ حيث ذكر أن مقتل الراهب الحبيس كان في عام٦٦٣هـ/١٢٦٥م، مناقضًا جُلّ المصادر المملوكية التي حددت مقتله عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م، وأغلب الظن أن هذا خطأ من عمل الناسخ؛ لثبوت تاريخ وفاته الأخير لدى المصادر كافة.

المبحث الرابع: **أثر حريق الباطلية في أوضاع النصارى في دولة بيبرس**:

مما لا شك فيه أن حريق الباطلية ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، وعلاقة الظاهر بيبرس بالراهب الحبيس كان لهما نتائج وخيمة على أوضاع النصارى في عهد بيبرس؛ الذي أطلق لبعض الشخصيات المملوكية حق التنكيل بهم في دولته، وتغاضى تماماً عن التدخل لحمايتهم من قبيل: الشيخ خضر[٩١] الذي صار في دولة بيبرس يحكم كالسلطان، ولا يقدر على منعه أي أحد

---

[٨٩] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٨٩؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٩٧؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٥؛ مفضل، النهج السديد، ص١٣٦-١٣٧؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٠٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤٤٥؛ الدليل الشافي، ج١، ص٢٠٣؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٩٦؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٥٦١.

[٩٠] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٩٠؛ تاريخ الإسلام، مج١٥، ص١٣.

[٩١] أحد الشيوخ الذين ثارت حولهم الإشكاليات في عصر بيبرس، بحيث كان أسيراً له، قيل إنه كان صاحب مكاشفات وكرامات، وكان يتنبأ لبيبرس ببعض الفتوحات، ومات قبل وفاة بيبرس بأيام معدودة عام٦٧٦هـ. للمزيد انظر: الذهبي، الإشارات إلى وفيات الأعيان المنتقي من تاريخ الإسلام، تحقيق: إبراهيم صالح، بيروت١٩٩١م، ص٣٨٦؛ ابن الملقن، طبقات الأولياء، تحقيق: نور الدين شريبه، القاهرة ١٩٩٤، ص٤٣١؛ المقريزي، كتاب المقفي الكبير، ج٣، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت١٩٩١، ص٧٥٠-٧٥١؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج٧، تحقيق: قسطنطين زريق، بيروت ١٩٣٦، ص١٠٢؛ الشعراني، الطبقات الكبري"لوافح

من كبار الأمراء، وقد بلغ توتر العلاقة بين المسلمين والنصارى في مصر درجة جعلت الشيخ خضر– بمباركة بيبرس– يقدم على هدم إحدى كنائس النصارى العظام في القدس الشريف؛ والتي كانت تقع غرب المدينة، وكانت تعرف"**بالمصلبة**"، واستباح ما فيها لتلاميذه، وقام بالقبض على قسيسها وذبحه بيده، ثم حولها إلى زاوية، وبنى بها المحاريب، ورتب فيها الفقراء، وأوقف عليها الأوقاف بما يكفل لهم معيشتهم[٩٢]، وكذا فعل بكنيسة القديسة مريم في مدينة دمشق، حيث استولى على ما بها من الفرش والأواني الثمينة وكانت أعدادها لا تُحصى، وأقام بها سماعاً، ومد فيها سماطاً فاخراً بكل ألوان الطعام والشراب، ثم حولها إلى مسجد وبنى فيها المحاريب . زد على ذلك أن الكنائس المصرية لم تسلم من يده؛ حيث دخل كنيسة البطركية الكبرى بالإسكندرية المعروفة بكنيسة يوحنا المعمدان، والتي كانت تحظى بأهمية بالغة؛ لاعتقاد النصارى أن بها رأس سيدنا يحيى بن زكريا، وفعل بها كما فعل بسابقتيها، وحولها إلى مسجد وبنى فيه المحاريب، وأطلق عليه المدرسة الخضراء، ورتب فيها الفقراء، وأنفق في سبيل تغيير تلك الكنيسة مالا يُحصي من الأموال[٩٣]، وجميع تلك الأفعال كانت بمباركة بيبرس الذي كان– كما عبر ابن شداد–"**موافق له على جميع ما يعتمده**"[٩٤] .

الأنوار في طبقات الأخيار"، ج٢، تحقيق: محمد المليجي، القاهرة ١٣١٥هـ، ص٢؛ المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، ج٣، تحقيق: محمد الجادر، بيروت(ب.ت)، ص٢٧؛

Holt, *N, Early Source on Shaykh Khadir Al-Mihrani, BSOAS*, vol.46 no.1 (1983).

[٩٢] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٥٩، ٢٧٣–٢٧٤، ٣٥١؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص٢٦٨؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٢٤٢؛ ابن الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص٢٢٢؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٨، ص٢٧١؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ج٢، ص٢٩٥؛ الصفدي، الوافي، ج١٣، ص٢٠٧؛ المقريزي، كتاب المقفي الكبير، ج٣، ص٧٥٢–٧٥٣؛ الخطط، ج٤، ص٣٠٧؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، مج٥، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨، ص٢١٩؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص١١٠. والجدير بالذكر أن ابن شداد ذكرها في موضع آخر بأنها "كنيسة قمامة"، وقد اختلط هذا الأمر على المؤرخ العيني الذي تحدث عن كنيسة قمامة، غير أن المعلومات التي ذكرها تخص كنيسة يوحنا المعمدان في الإسكندرية؛ إلا أن العيني يخبرنا من ناحية أخرى بمعلومة غاية في الأهمية مؤداها أن ملك الكرج أرسل سفارة رسمية في عام ٧٠٥هـ إلى الناصر محمد بن قلاوون يسأله فيها أن ترد إليهم كنيسة المصلبة بالقدس الشريف والتي تم تحويلها إلى مسجد علي يد الشيخ خضر، وبمحضر من العلماء وبمقتضى فتاويهم تم ردها إليهم مرة أخرى في تلك السنة. انظر: عقد الجمان، ج٤، ص٣٧٨ حوادث عام ٧٠٥هـ.

[٩٣] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٥٩، ٢٧٤؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص٢٦٨؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٢٤٢؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٨، ص٢٧٠–٢٧١؛ ابن الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص٢٢٢؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ج٢، ص٢٩٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٣، ص٢٠٧؛ المقريزي،

فضلاً عن قيام الظاهر بيبرس ببعض الأفعال الشنيعة في العام التالي لحريق الباطلية ٦٦٤هـ/١٢٦٦م بإصدار عقوبة التوسيط[٩٥] لجميع الرهبان في بلدة قارا، وتحويل كنيستها إلي جامع [٩٦]، وكذا فعل في عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م بحصن الأكراد حين هدم كنيسته وسواها بالأرض وحولها إلي مسجد[٩٧].

صفوة القول أن بعض سلاطين المماليك دأبوا علي افتعال الذرائع من أجل التنكيل بالنصارى؛ الذين تعرضوا للعديد من المضايقات–في عصر الظاهر بيبرس تحديداً– بغية إثقال كاهلهم بالمغارم المالية لكونهم عنصر فعال في الدولة المملوكية امتلك الثروات جراء شغلهم للوظائف المالية، والمرجح أن هذه الظاهرة تكررت مرارًا طوال العصر المملوكي؛ ويكفي مثال واحد للتدليل على ذلك هو ما ورد في حوادث عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م حينما طرق الصليبيون مدينة الإسكندرية وقاموا بنهبها، ثم غادروها، وتناهى إلى علم السلطان الأشرف شعبان حينذاك أن نصارى قلعة الشوبك هم الذين حرضوا الصليبيين على غزو مدينة الإسكندرية، فأمر نائب الكرك بالقبض عليهم، والاستيلاء على ربع أموالهم، كون " **النصارى لهم سعادة وأموال جزيلة**"[٩٨].

كشف البحث أيضاً عن وجود رد فعل إيجابي من قبل النصارى ممثلًا في الراهب بولص الحبيس الذي وقف بحزم ضد عقوبات الظاهر بيبرس، وسخر الأموال الكنسية والصدقات لرفع المغارم المالية عن جميع الطوائف الدينية من نصارى ويهود ومسلمين، تلك الأفعال التي جرت عليه وبال الفقهاء المسلمين الذين زينوا لبيبرس قتله خوفاً من إشاعة الفتنة بين المسلمين، مما جعله يردخ لفتواهم وقام بقتله، ثم تغاضي عن صور العنف التي انتهجها الشيخ خضر في حق النصاري كذبح بعض القساوسة والرهبان وهدم الكنائس وتحويلها إلى مساجد.

المقفي، ج٣، ص٧٥٢؛ الخطط، ج٤، ص٣٠٨؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، مج٥، ص٢١٩. الجدير بالملاحظة أن المقريزي رأي أن المدرسة سماها" **الخضر**" على اسمه، وقد يكون لهذا علاقة بكلمة" **الخضراء**".

[٩٤] تاريخ الملك الظاهر، ص٢٧٤.

[٩٥] التوسيط من أكثر وسائل التعذيب انتشارًا في العصر الملوكي، ويُقصد به ضرب المحكوم عليه بالإعدام ضربة قوية بالسيف تحت السرة تقسم جسمه نصفين فتنهار أمعاؤه إلى الأرض. انظر: سعود العصفور، وسائل التعذيب في العصر المملوكي، مكتبة ابن قتيبة، الكويت ١٩٩٩، ص٤٧.

[٩٦] ابن الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص١٢٠.

[٩٧] ابن الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص١٥٢.

[٩٨] المقريزي، درر العقود الفريدة، ج٢، ص٢٤٥.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

-الفيومى، نثر الجمان في تراجم الأعيان، ج٥، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٤٦ تاريخ.

-ابن حبيب، درة الأسلاك في دولة الأتراك، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦١٧٠ تاريخ.

ثانياً: المصادر العربية:

-ابن تغري بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج١، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي القاهرة (ب.ت).

-ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٣، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٨٥م.

-ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٤، دار الكتب المصرية القاهرة (ب.ت).

-ابن حجر، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، ج٤، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، حيدر أباد الهند ١٩٧٢.

-ابن حجر، رفع الإصر عن قضاة مصر، ج١، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٩٨.

-ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ق٢ج٥، مطبعة بولاق القاهرة ١٨٩٣.

-ابن دقماق، الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق: سعيد عاشور، مراجعة: أحمد دراج، القاهرة ١٩٨٢.

-ابن الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٦ الموسوم بـ"الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦١.

-ابن الدواداري، كنز الدرر، ج٨ الموسوم بـ"الدرة الزكية في الدولة التركية"، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١.

-ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق: أحمد حطيط، فيسبادن ١٩٨٣.

-ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز خويطر، الرياض ١٩٧٦.

-ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٩٦.

-ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٧، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير بيروت ١٩٨٦.

-ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**، ج٧، تحقيق: قسطنطين زريق، بيروت ١٩٣٦.

-ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، تحقيق: علي شيري، ط احياء التراث ١٩٨٨.

-ابن الملقن، **طبقات الأولياء**، تحقيق: نور الدين شريبه، القاهرة ١٩٩٤.

-ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، بيروت ١٩٧٠.

-أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، بيروت ١٩٧٤.

-الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج١٠، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، بيروت٢٠٠٢.

-الخلال، أحكام أهل الملل من الجامع لمسائل الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: سيد كسروي، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٤.

-الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج٣، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية بيروت (ب.ت).

-الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مج١٥، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٣.

-الذهبي، الإشارات إلى وفيات الأعيان المنتقي من تاريخ الإسلام، تحقيق: إبراهيم صالح، بيروت١٩٩١م.

-الربعي، شروط النصاري وبذيله أحاديث لأبي محمد عبد الوهاب بن أحمد الكلابي، تحقيق: أنس بن عبد الرحمن العقيل، دار البشائر بيروت٢٠٠٦م.
-الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج٥، عالم الكتب بيروت١٩٨٨.
-السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٢، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٦٧.
-الشابستي، الديارات، نشره: كوركيس عواد، مطبعة المعارف العراق ١٩٥١.
-شافع بن علي، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، ط٢، الرياض ١٩٨٩.
-الشعراني، الطبقات الكبري"لوافح الأنوار في طبقات الأخيار"، ج٢، تحقيق: محمد المليجي، القاهرة ١٣١٥هـ
-الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، مج٤، عالم الكتب، بيروت ١٩٩٤.
-الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفي، دار إحياء التراث بيروت ٢٠٠٠م.
-الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق: جاكلين سوبلة، دمشق ١٩٧٤.
-الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة ٢٠٠٠م.
-العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب القاهرة ١٩٢٤.
-العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج١، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القاهرة ٢٠١٠.
-القلقشندي، صبح الأعشي في صناعة الإنشا، ج٣، دار الكتب العلمية بيروت (ب.ت).
-الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، ج١، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت١٩٧٣.
-المرادي الحسيني، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ج٣، دار ابن حزم القاهرة ١٩٨٨.

-مفضل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق: بلوشيه، ضمن دورية Patrologia Orientalis، الجزء ١٢، بلجيكا ١٩٨٢.

-المقريزي، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج٢، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٩٦.

-المقريزي، الخطط المقريزية، ج٣، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٨هـ.

-المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت١٩٩٧.

-المقريزي، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ج٢، تحقيق: محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي بيروت ٢٠٠٢م.

-المقريزي، كتاب المقفي الكبير، ج٣، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩١.

-المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، ج٣، تحقيق: محمد الجادر، بيروت(ب.ت).

-النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٠، تحقيق: نجيب مصطفي فواز، حكمت فواز، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٤م.

-اليافعي مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ج٤، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٧.

-اليماني، غربال الزمان في وفيات الأعيان، تصحيح: محمد ناجي زعبي، دمشق١٩٨٥.

-اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، دار الكتاب الإسلامي القاهرة ١٩٩٢.

ثالثاً: المراجع:

-أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج١، عالم الكتب ٢٠٠٨.

-جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج١٢، ط٤، دار الساقي ٢٠٠١م.

-سيد الحريري، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، القاهرة ١٣٢٩هـ.

-عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠م.

-عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، ط١، جروس برس، بيروت، ١٩٨٨.

-قاسم عبده قاسم، عصر السلاطين المماليك، ط١، دار الشروق القاهرة ١٩٩٤.

-قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ط١، دار عين القاهرة ١٩٨٨.

-محمد عبد الله عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، دار الرفاعي الرياض ١٩٨٣.

-محمد قنديل البقلي، الطرب في العصر المملوكي " الغناء، الرقص، الموسيقا"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤.

-محمد محمد أمين، ليلى علي إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، الجامعة الأمريكية القاهرة ١٩٩٠.